



محمَد مهدي الآصفي

اسم الكتاب: ....الشعائر والشعارات الحسينية ـ القسم الثاني

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

الحج: ٣٢

الفصل الثاني

الشعارات الحسينية يوم عاشوراء

في سياق الحديث عن الشعائر الحسينية... لا بد أن نرجع إلى ساحة الملحمة الخالدة في التاريخ يوم عاشوراء وهو المعين الأول لكل هذه الشعارات... لنستعرض الشعارات التي اشهرها الحسين﵇ وأصحابه وأهل بيته في ساحة الطف.

وهذه النقطة بالتأكيد ضرورية في دراستنا للشعائر الحسينية... فان تلك الشعارات هي الأساس والعمق الأول للشعائر الحسينية في امتداد التاريخ وعلى مساحة واسعة جداً من الأرض.

وهذه الشعارات تتجسد في الهتافات والرجز الذي كان يلقيه ويردده الحسين﵇ وأصحابه وأهل بيته في ذلك اليوم في ساحة المعركة.

ولا شك أن هذه الدراسة على قدر كبير من الأهمية... فهي تكشف لنا الأهداف والغايات الحقيقية لثورة الحسين﵇ في عاشوراء، والإطار والمضمون الحقيقي لهذه الملحمة المأساوية الخالدة والتي كتبها الحسين للأجيال بدمائه ودماء أهل بيته وأصحابه الزاكية.

الخطاب والشعار

إن أفضل ما يعكس لنا ثقافة عاشوراء هو (الخطاب) و(الشعار)... وقد حفظ الله تعالى لنا هذين المعينين الثقافيين اللذين يرفداننا بثقافة عاشوراء من الضياع والسطو في حكومة بني أمية وبني العباس الذين كانوا يكافحون هذه الثقافة، ويعملون على استئصالها بكل الوسائل الممكنة.

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من الخطاب الحسيني وخطاب أهل بيته وأصحابه منذ أن خرج من المدينة إلى أن رجع أهل بيته إلى المدينة من الشام، في تلك الظروف التي كان يحكمها الإرهاب، كما حفظ الله تعالى لنا الكثير من الهتافات والرجز الذي ألقاه الحسين﵇ وأهل بيته وأصحابه يومئذ في ساحة المعركة، وهو الذي سميناه بـ (الشعارات الحسينية) في ساحة المعركة.

ولئن كانت تلك الخطابات والشعارات التي أطلقها الحسين﵇ وأنصاره وأهل بيته في ظروف الإرهاب والاضطهاد الأموي أمرا غريباً واختراقاً لجدار الرعب والإرهاب، فإن ثبات هذه الخطابات والشعارات في ذاكرة التاريخ ـ عبر حكم بني أمية وبني العباس ـ إلى

اليوم لا تقل غرابة.

ونحن هنا نتحدث عن الشعارات الحسينية أما الخطاب الحسيني، فقد تحدثنا عنه في كتاب (الخطاب الحسيني).

هذه الشعارات كانت في الغالب شعراً من بحر (الرجز) يرتجز فيه المقاتلون ساعة النزول إلى الساحة والاشتباك مع العدو وكانت في الغالب على نحو الارتجال... وهي على عفويتها تحمل مفاهيم وأفكار وقيما يحتاج إلى كثير من التأمل والتوقف والدراسة.

وليست لدينا هنا فرصة دراسة دقيقة وعميقة لدراسة هذا الرجز وندعو خطباء المنبر الحسيني أن يتناولوا هذا الموضوع باهتمام أكثر... ولكننا نشير في هذه العجالة إلى مجموعة من المفاهيم والقيم التي نقتبسها نحن من هذه الشعارات التي كان يطلقها أنصار الحسين في ساحة الوغى، عند الاشتباك.

مفردات وعناوين

الشعارات الحسينية يوم عاشوراء

١ . ثقافة المعارضة والمقاومة

الظلم لا محالة واقع في التاريخ في حياة الأمم والأفراد، ولا سبيل إلى قطع دابر الظلم، فهو جزء لا يتجزأ من سنة الابتلاء التي جعلها الله تعالى وسيلة لامتحان عباده في التاريخ والمجتمع.

ولكن كيف نتعامل مع الظلم؟

وهذا هو السؤال العملي الذي نواجهه دائماً في التاريخ والمجتمع تجاه ظاهرة الظلم.

هل نعارض، ونقاوم الظالم؟ أو ننقاد ونطيع ونسكت، أو نغيب ونهرب عن مواجهة الظالم.

في التاريخ الإسلامي نجد ثقافتين مختلفتين تماما تجاه هذه الظاهرة.

الثقافة الأولى: ثقافة المعارضة والمقاومة للظالم.

والثقافة الثانية: ثقافة الطاعة والمطاوعة للظالم.

وهاتان الثقافتان تنبعان من رأيين فقهيين في الفقه السياسي في الإسلام.

الرأي الأول هو معارضة الظالم ومقاومته.

والرأي الثاني هو طاعة الظلم وحرمة الخروج عليه.

وتتبنى الرأي الأول مدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية، وطائفة من فقهاء أهل السنة.

ويتبنى الرأي الثاني طائفة كبيرة من الفقهاء منذ الصدر الأول للإسلام، من أيام بني أمية إلى اليوم.

وفي مقدمة من اشتهر بهذا الرأي من الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة، ونظراء لهم، وتبعهم تابعون من جيل التابعين، كانوا يرون حرمة الخروج على السلطان الجائر، ولزوم طاعته وتحريم المعارضة السياسية والمقاومة المسلحة تجاهه.

وذهب إلى هذا المذهب طائفة كبيرة من أئمة الفقه الإسلامي مثل احمد بن حنبل، فقد عرف عنه بما لا يقبل الشك أنه يرى وجوب السمع والطاعة للائمة والأمراء، براً وفاجرا، ممن ولي الخلافة، وغلبهم بالسيف، وليس لأحد أن يطعن فيهم وينازعهم، ويجوز دفع الصدقات والزكوات إليهم ويجزي عنهم برا كان أو فاجرا، ويجوز إقامة الجمعة

خلفه، ومن أعادها فهو مبتدع مخالف للسنة[1].

ويعلل احمد بن حنبل وجوب الطاعة وحرمة الخروج بالمحافظة على أمن المجتمع والدولة من الفتن السياسية والعسكرية.

وإلى هذا المذهب يذهب أمة كبيرة من الفقهاء فقد ادعى النووي في شرحه على صحيح مسلم: إجماع فقهاء أهل السنة على ذلك... قال: وإما الخروج عليهم ـ يعني الخلفاء ـ وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وان كانوا فسقة ظالمين، وأجمع أهل السنة (على) انه لا يُعزل السلطان بالفسق.

كما نقل الإجماع نفسه ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري (فتح الباري) عن ابن بطّال قال: وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وإن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين للدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلاّ إذا وقع من السلطان الكفر الصريح.

وكلمات فقهاء أهل السنة في ذلك كثيرة نقلنا طائفة منها في كتابنا (حوار بين التسامح والعنف) و(ولاية الأمر).

(١) راجع تاريخ المذاهب الإسلامية لابن زهرة ٢: ٣٢٢.

وقد دخل هذا الرأي الفقهي السياسي في المجتمع الإسلامي وفي صلب الثقافة الإسلامية الرائجة الرسمية في التاريخ الإسلامي، وتحول إلى ثقافة فقهية قائمة في أوساط المسلمين.

واشتهرت مدرسة أهل البيت عليهم السلام كما قلنا بالرأي الأول في الفقه السياسي، وتكوّنت من هذا الرأي الفقهي ثقافة سياسية هي ثقافة المعارضة والخروج والمقاومة المسلحة ويعتمد هذا المذهب الفقهي آيات محكمات من كتاب الله وأحاديث صحيحة وصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد انطلق منها الإمام الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن محكمات كتاب الله الآيات الناهية عن طاعة الكافرين والفاسقين، والآمرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرادعة عن طاعة الظالمين قوله تعالى: ﴿**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[2].

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) الأحزاب: ١.

وقوله تعالى: **﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾**[1]. وقوله تعالى: **﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾**[2]. وقوله تعالى: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾**[3].وقوله تعالى: **﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾**[4] [5].

انطلق الحسين عليه السلام في الخروج على يزيد من هذا المنطلق من الكتاب والسنة، وشاع هذا الفقه في الأوساط الإسلامية بعد ثورة الحسين عليه السلام شياعا واسعا وتبنّاه الكثير من العلماء والفقهاء.

إذن نحن نواجه في التاريخ الإسلامي ثقافتين فقهيتين مختلفتين اختلافا كبيرا، إلى حد التقاطع والتقابل، وهما ثقافة مقاومة الظالم وثقافة مطاوعة الظالم والانقياد له.

وما تلوناه عليك من آيات كتاب الله المحكمات، وما نعرفه من ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشريعة يكفي في الاحتجاج به للرأي الأول، فضلا عن الأحاديث المروية بطرق صحيحة في مجامع الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله...

---

(١) القلم: ٨.

(٢) القلم: ١٠.

(٣) الإنسان: ٢٤.

(٤) الشعراء: ١٥١.

(٥) راجع تفصيل هذا البحث من كتابينا: (حوار بين التسامح والعنف) و(ولاية الأمر).

ولسنا نريد أن ندخل التفاصيل الفقهية في هذه المسألة فقد شرحناها بشيء من التفصيل في كتاب (ولاية الأمر) وفي كتاب (حوار بين التسامح والعنف)، فلا نريد هنا أن نتوقف في دراسة هذه المسألة من الناحية الفقهية.

ونحن نتّهم بني أمية ثم بني العباس، ثم الحكام الظالمين في التاريخ الإسلامي في إشاعة هذا الرأي الفقهي والثقافة الفقهية القائمة على طاعة الظالم ومطاوعته وتبنّيها إلى اليوم.

ونُحمّل هذا الرأي الفقهي مسؤولية الظلم الكبير والانحراف الذي وقع في التاريخ الإسلامي في دائرة الخلافة الإسلامية، وبعدها في دائرة الأنظمة.

فقد كان الحكّام الظالمون المنحرفون يجدون في هذا الرأي الفقهي إسنادا لهم في الاستمرار في ممارسة الظلم والانحراف عن الإسلام... وكان ينزل على نفوسهم بَرْداً وسلاماً ويتعهّد لهم هذا الرأي الفقهي بخنق كل صوت للمعارضة، ومتى يجد الحكام الجائرون إسنادا أو دعما لحكمهم أفضل من ذلك.

ولا نشك في أن الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في ترك

المعارضة للظالم، والركون إليه والتسليم والطاعة له منتحلة على رسول الله ﷺ.

وآية ذلك معارضة هذه الأحاديث لمحكمات كتاب الله، ولما صح عن رسول الله ﷺ، ولسيرة الحسين عليه السلام في ثورته على يزيد وسيرة التابعين في وقعة الحرة التي أعلنوا فيها الخروج على يزيد بن معاوية بعد خروج الحسين عليه السلام في كربلاء فأبادهم يزيد، وأوقع فيهم مذبحة عظيمة، يحدثنا عنها المؤرخون.

ولولا ثورة الحسين عليه السلام لكان لهذا الرأي الفقهي في طاعة الظالم وهذه الثقافة الفقهية دور اكبر وأوسع في القضاء على الحركات السياسية الإسلامية المعارضة، وحركات المقاومة المسلحة، وكان سبباً في فسح المجال للحكام الجائرين بشكل مطلق، ليعيثوا في الأرض فساداً وليهلكوا الحرث والنسل، فإنهم في أمان من كل اعتراض ومقاومة من قبل المسلمين، ما داموا لم ينطقوا بالكفر الصراح، كما يقول أصحاب هذا الرأي.

وقد جاءت ثورة الحسين عليه السلام رحمة على هذه الأمة، ولم يكن بوسع أحد يحترم دينه وعلمه وعقله أن يُخطِّئ الحسين عليه السلام، فكانت

ثورته المأساوية الدامية اختراقا لهذه الفتاوى التي أضرّت بدور الرأي العام الإسلامي في إسقاط الحكومات الظالمة ورداً عمليا لهذه الفتاوى، وقدوة صالحة للمسلمين في الموقف من الحكام الجائرين.

روى الطبري وابن الأثير في تاريخيهما: أن الحسين عليه السلام خطب في أصحابه في بعض المنازل، فقال:

«**أيها الناس أن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرام الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله، ألا وان هؤلاء، قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر**»[1].

وفي الخطاب الحسيني والشعارات التي رفعها الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء تأكيد وتعميق لثقافة الرفض والمعارضة والمقاومة.

وقد خطب الإمام عليه السلام في بعض منازل الطريق في أصحابه وأصحاب الحرّ فقال:

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠، والكامل ٤: ٤٨.

«إن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله».

ويرتجز علي بن الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين يدي أبيه ويقول:

أنا علي بن الحسين بن علي ‏ ‏ ‏ ‏ نحن وبيت الله أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي ‏ ‏ ‏ ‏ أطعنكم بالرمح حتى ينثني[1]

كلما يطلبه الحسين عليه السلام في هذه المقاومة المسلحة لجيش بني امية هو هاتان الكلمتان اللتان قالهما علي بن الحسين عليه السلام:

(نحن وبيت الله أولى بالنبي) (والله لا يحكم فينا ابن الدعي).

إعلان حقه في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمامة هذه الأمة، ورفض إمامة وولاية بني أمية عامة على المسلمين.

٢. الفتح والهزيمة

للإمام الحسين عليه السلام أبيات من الشعر يوم عاشوراء ألقاها على جيش بني أمية في ساحة القتال تستوقف الإنسان وتدعوه إلى التأمل والتفكير، يقول عليه السلام:

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ١٠٦، مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٠، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٩.

فإن نَهْزِم فهزّامون قُدْماً ‏ ‏ ‏ ‏ وإن نُهْزَم فغير مُهَزَّمينا
وما أن شابنا جبن ولكن ‏ ‏ ‏ ‏ منايانا ودولة آخرينا[1]

يقول عليه السلام إن نحن هزمناكم فطالما هزمناكم من قبل في بدر، وما بعد بدر حتى رضختم للإسلام ودخلتم الإسلام مكرهين: (فان نهزم فهزامون قدماً).

وان كان الآخر وَهُزِمْنا، فليس علينا في ذلك من بأس، فلم ننهزم نحن في الصراع على المبادئ والقيم، ولكن هُزمنا في معركة عسكرية غير متكافئة وظالمة... وما على المؤمن بأس أن ينهزم في معركة عسكرية غير متكافئة إذا كان في موقع الدفاع عن الحق وخصمه في موقع الباطل، ولكن البأس كل البأس أن ينسحب ويتراجع من موقع المبادئ والقيم: (وإن نُهزم فغير مهزمينا).

ولا بد من وقفة قصيرة لهذا الشطر من كلام الإمام عليه السلام... وهو كلام دقيق وعميق.

إن الفتح والهزيمة في المعارك العسكرية يختلفان عنهما في المعارك الحضارية...والمعركة غير المتكافئة التي يدخلها الإمام

(١) مناقب ابن شهر اشوب ٤: ٨٠، بحار الانوار ٢٥: ٩٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٨.

الحسين عليه السلام في قبالة بني أمية معركة حضارية في الحقيقة، على هيئة معركة عسكرية...

والإمام في هذه المعركة يطلب أهدافاً حضارية، أما بنو أمية فكانوا يطلبون في هذه المعركة التصفية الجسدية والإعلامية والسياسية الكاملة للمعسكر العلوي في كربلاء.

إن الفتح والهزيمة في المعركة الحضارية غيرها في المعارك العسكرية.

الهزيمة في المعركة العسكرية تقع من طرف على طرف آخر، شاء الطرف الآخر أو لم يشأ، قبل أم لم يقبل... فليس للهزيمة طرفان(كالعقود)، وإنما هي كـ (الإيقاعات)، يفرضها أقوى الطرفين على أضعفهما.

وليست الهزائم في المعارك الحضارية كذلك... إنّ الهزيمة في المعارك الحضارية لا تقع من طرف واحد على الطرف الآخر، كما في المعارك العسكرية، وإنما تتحقق بقبول الطرف الآخر للهزيمة وتنازله عن أهدافه وغاياته ومواقفه وقيمه... فهو من قبيل العقود، إذا صح هذا التعبير، وليس من قبيل الإيقاعات.

إن الهزيمة الحضارية لا تقع بإرادة وفعل الطرف الهازم فقط، وبصورة قهرية من جانب الطرف المنهزم، وإنّما تقع مع قبول الطرف الآخر للهزيمة، وأقصد بالقبول تنازله عن مواقفه وأهدافه وقيمه الحضارية، واستسلامه للطرف الهازم.

فإذا كان الطرف الآخر يرفض الهزيمة، ويُصرُّ على مواقفه وأهدافه ورسالته، رغم ما نزل به من فتك وبطش وقتل من الطرف الهازم، فلا تتحقق الهزيمة بمعناها الحضاري والثقافي.

الهزيمة العسكرية قضية رياضية من حيث الكم، الكم الأكبر يغلب الكم الأقل في اغلب الأحوال، وقضية فيزيائية... من حيث السلاح، السلاح القوي يقطع السلاح الضعيف ويوقفه، فهي قضية مادية رياضية ـ فيزياوية بحتة.

أما الهزيمة الحضارية فهي أمر آخر لا تتحقق إلا بتنازل الطرف المهزوم عسكرياً عن مواقفه، وقيمه، وأهدافه، وأخلاقه، ومبادئه، تبعاً لرأي الطرف الهازم وإملائه، وبتقبّل الطرف المنهزم للهزيمة وهذا ما لم يتحقق قط في كربلاء يوم عاشوراء... فلم يزل الحسين عليه السلام وأنصاره على نفس المواقع التي أعلنها الحسين في المدينة، وفي مكة، وفي

طريقه إلى العراق ثم في كربلاء، لم يتجاوزوا موقع الرفض والاعتراض حتى آخر لحظة من حياتهم، ولم يتنازلوا عن شيء من أهدافهم وغاياتهم ومواقعهم في خروجهم على يزيد بن معاوية.

والفتك والبطش الحاقد الذي مارسه بنو أميه بحق الحسين عليه السلام وأنصاره، حتى داسوا جسده الطاهر بحوافر خيولهم لم يثن أهل بيته عليه السلام وشيعتهم (رضوان الله عليهم) من مواصلة الخطاب الحسيني والإصرار على رفض سلطان بنو أمية، وإعلان إلغاء شرعيته، والدعوة إلى الخروج عليهم، والتشهير والتسقيط بهم وإعلان ظلامة الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء.

ولم يزد هذا النصر العسكري الذي كسبه بنو أمية في وقعة الطف أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم غير الإصرار على إعلان الخطاب الحسيني، ونشره والتأكيد، على مواقع الحسين عليه السلام الرافضة والمعارضة لبني أمية.

ولم يزد الناس إلا نفوراً من بني أمية، وغضباً عليهم.

ولم تعد الشرعية لبني أمية في الخلافة والسلطان بعد ذلك اليوم قط، وكانت ثورة الحسين عليه السلام نهاية قطعية لشرعية حكومة بني أمية... فأين موضع الهزيمة في ثورة الحسين عليه السلام؟.

إن الهزيمة التي ألحقها جند بني أمية بالحسين عليه السلام وأنصاره لم تكن غير هزيمة عسكرية، وهي ما كان يتوقعها الحسين عليه السلام وأعلنها يوم خطب في الناس بمكة، وأعلن خروجه إلى العراق بمن يصحبه لإعلان الثورة على سلطان بني أمية في الشام، ونعي إليهم نفسه...

فلم يكن في النصر العسكري الذي ناله بنو أمية أمر جديد لم يدخل في حساب الإمام عليه السلام وأنصاره.

وكان من غرائب القدر أن تحمل هذه الهزيمة العسكرية نواة فتح كبير في مسيرة الحسين عليه السلام وأهل بيته، بالمضمون الحضاري... وهو ما لم يكن يتوقعه بنو أمية قط. ورغم كل الجهد الذي بذلوه لإخماد الخطاب الحسيني بعد استشهاده فقد أخفقوا إخفاقا كاملاً في ذلك، وارتفع الخطاب الحسيني على لسان علي بن الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام في قصر الطاغية في الشام، ومن قبله في الكوفة بين جماهير العراق، الذين تخلفوا عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله... وبعد ذلك في المدينة، عند عودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة، ثم زحف الخطاب الحسيني إلى كل أقاليم العالم الإسلامي، وتحوّل إلى وعي ويقظة وثورة على الطاغية في نفوس المسلمين إلى اليوم.

وهكذا تحولت الهزيمة العسكرية في كربلاء يوم العاشر من محرم إلى فتح حضاري واسع.

وكان الإمام الحسين عليه السلام يتوقع هذا الفتح من المدينة إلى كربلاء، ولم يكن يتردد فيه أهل بيته من بعده، حتى بعد مأساة عاشوراء.

ففي مكة أمر الإمام عليه السلام بقرطاس، وكتب إلى بني هاشم:

«أما بعد... فأنه من لحق بي استشهد، ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح والسلام»[1].

وفي هذا الكتاب الذي عمّمه الإمام على بني هاشم يذكر الإمام عليه السلام نقاطاً هامة جديرة بالاهتمام، رغم إيجاز الكتاب.

١ ـ ينعى نفسه ونفوس من معه إلى بني هاشم، فإذن هو لم يخرج إلى فتح عسكري، وإنما يوطّن نفسه، ونفوس أنصاره لمصرعه ومصرع أنصاره، ولا يمكن أن يخرج الإنسان لفتح عسكري ثم ينعى نفسه ونفوس أصحابه.

٢ ـ يعلن لبني هاشم أنه لا محالة يكسب الفتح بخروجه على يزيد... وهذا هو معنى (ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح) فإن المفهوم

(١) السيد ابن طاووس في الملهوف تحت عنوان: تخلف محمد بن الحنفية عن أخيه الحسين عليه السلام.

الواضح من سياق الكلام أن من خرج معه يبلغ الفتح.

٣ ـ ومن تخلف عنه يفوته هذا الفتح الأكبر الذي يبقى أثره قائماً في تاريخ الإسلام إلى ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه.

وفي يوم عاشوراء يعلن الحسين عليه السلام لمعسكر بني أمية في الأبيات التي يلقيها عليهم من موقع القتال، مرتجلاً أن هزيمته ومصرعه ومصرع أنصاره في هذه المعركة لن يكون إلا هزيمة عسكرية، وهي ما لا قيمة له في حساب الحسين عليه السلام، وله تأثير وقتي وموضعي محدود، يعبر عنه الإمام عليه السلام بهذا التعبير الجميل: (منايانا ودولة آخرينا).

فلا يزيد هذا الفتح العسكري في جانب بني أمية ومصرع الحسين عليه السلام وأنصاره على أن يكون قضاءً وقدراً من الله تعالى في حلول منايا أنصار الحسين عليه السلام، وتمادي دولة بني أمية (منايانا ودولة آخرينا) وهو ليس بذي شأن قطعاً في حساب الله، ولا في حساب التاريخ.

ويقرر لهم بصراحة في ذلك اليوم الصعب: أن هذه الهزيمة العسكرية لا تعني الهزيمة له ولأنصاره إطلاقا.

فــان نَهــزم فهزّامــون قـــدماً   وان نُهـــزم فغيـــر مهزمينـــا

وبعد مأساة الطف ـ في الشام ـ عندما دخل أهل بيت الحسينعليه السلام الشام، عاصمة حكم الطاغية، أسرى بتلك الصورة المشجية يسأل رجل الإمام علي بن الحسينعليه السلام، وهو في رأينا غير شامت، ولكنه متوجّع: من الغالب يا ابن رسول الله؟ فقال لـه علي بن الحسينعليه السلام: إذا أذّن المؤذن تعرف من الغالب... وبهذا التعبير الوجيز يذّكر الإمام زين العابدينعليه السلام السائل المتوجع من حادث الطف... إنّ هذه المأساة تتحول إلى فتح كبير، يحفظ الإسلام، ويحفظ التوحيد والتكبير والتهليل والصلاة والأذان، ويلغي شريعة بني أمية، فلا يكون لبني أمية موقع شرعي في الإسلام، ولا يكون لانحرافهم وإسرافهم وإفسادهم تأثير كبير على الإسلام، وإنما تبقى دولة بني أمية دولة طائشة في عداد الدول الطائشة في التاريخ، وهي كثيرة ولا يكون لها دور منذ اليوم في تخريب الإسلام بسبب ثورة الحسينعليه السلام.

إذن، رغم ما شاهده أهل البيتعليهم السلام من مأساة الطف الموجعة المفجعة لم يتغير رأيهم في نتيجة هذه المأساة قط، وبقوا يعتقدون ويؤمنون: أن الفتح كان في جانب الحسينعليه السلام في هذه الملحمة، وأن الهزيمة كانت في جانب بني أمية.

وفي البيت الثاني يقول الإمامعليه السلام:

ومــا أن شــابنا جــبن ولكــن   منايانـــا ودولـــة آخرينـــا

إن الهزيمة العسكرية التي تصيبنا في كربلاء والانتصار العسكري الذي ناله أعداؤنا في هذه المعركة... لا يكون دليلاً على جبن منا ولا على شجاعة منهم... فقد ينتكس الشجاع في معركة عسكرية، ويغلب الجبان فيها... فان المعركة العسكرية لها موازينها الخاصة بها، والانتصار والهزيمة فيها لا تدل على شجاعة ولا على جبن.

إن النصر والهزيمة في المعركة العسكرية تأتي ضمن سنن إلهية، فقد ينتصر دعاة الحق، وينهزم دعاة الباطل كما حصل في بدر، وقد ينعكس الأمر فينتصر دعاة الباطل وينتكس دعاة الحق كما حصل في (أُحد).

إلا أن الأساس الثابت الذي لا يتغير في هذه المعركة التي يتردد فيها النصر والهزيمة بين الجبهتين المتقاتلتين: إن العاقبة للمتقين، من خلال هذا الخط البياني المتعرج بين النصر والهزيمة. والمؤمنون المتقون هم الأعلون، والكافرون والمشركون هم المندحرون في هذه المعركة، في العاقبة.

إن تداول الأيام للغلبة والنصر والهزيمة في هذا الصراع لا يغير من هذه السنّة الإلهية الثابتة شيئاً (ما دام الصراع بين الإيمان والشرك، وبين الجاهلية والإسلام).

إن استعلاء الإيمان وسقوط الكفر من حتميات التاريخ الثابتة التي لا تتغير. ما ثبت أهل الإيمان على إيمانهم ومتطلباته في ساحة المعركة... وأما النصر والهزيمة والصعود والنزول الذي يتخلل هذه المعركة فهو من (تداول الأيام) الذي لا بد منه في هذا الصراع، ولا يغير من عاقبة المعركة شيئاً.

ولولا تداول الأيام لحملة التوحيد بين النصر والهزيمة العسكرية لدخل العجب والزهو والغرور نفوس المؤمنين،وأفسد عليهم نفوسهم، ونفذ المنافقون وضعاف الإيمان إلى صفوفهم، ولم يكن بإمكانهم فرز المؤمنين عن المنافقين، ولا معرفة أقوياء الإيمان من ضعفائهم... إن هذه الانتكاسات والهزائم التي تتخلل هذا الصراع الطويل، تحصّن المؤمنين من العجب والغرور والزهو والبطر، وتمحصّهم وتهذب نفوسهم، وتبقيهم في حالة النفر والتأهّب الدائم، وتنّقي صفوفهم من المنافقين وضعفاء الإيمان، كما تنّقي نفوسهم من الزهو والغرور،

وتبقى علاقتهم بالله، وثقتهم بالله، وتوكلهم على الله في ساحة المعركة... ولو كان النصر يتوالى عليهم مرة بعد أخرى لدخلهم الغرور والعجب والبطر، وأفسد عليهم ثقتهم بالله وتوكلهم على الله وإخلاصهم لله في المعركة.

ولأمر ما يصيب الله تعالى عباده المؤمنين بالانتكاسة في الصراع الطويل بينهم وبين خصومهم، مرة بعد أخرى، وكان الله تعالى قادراً على أن ينقلهم من نصر إلى نصر، ولكن الله تعالى يعلم أن مرارة هذه الانتكاسات أفضل لهم من نشوة الانتصارات التي تتوالى عليهم، فلا يتابع لهم الهزيمة بعد الهزيمة كي لا يغلبهم الشيطان، فيدخل اليأس في نفوسهم، ولا يوالي عليهم الانتصار كي لا يبطروا، ويدخل الشيطان عليهم نشوة النصر وما يستتبعه من الغرور والبطر والزهو الباطل.

إن هذه القروح التي تصيب المؤمنين في المعركة تنفعهم أولاً، ولا تغير من السُنّة الإلهية الثابتة باستعلاء المؤمنين وسقوط الكافرين ثانياً.

وتبقى هذه السنّة تحكم التاريخ، مهما كانت الظروف التي تمّر

على المؤمنين في هذا الصراع، صعبة وقاسية، بل أن قسوة ظروف الابتلاء في هذه المعركة تُعدّهم لمواصلة هذه المعركة إلى أن يأذن الله تعالى لهم بالنصر الأكيد ولخصومهم بالاندحار والسقوط.

ومن خلال هذه القروح والانتكاسات والابتلاءات يتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء وقيمين وأئمة على مسيرة الحضارة الإنسانية في التاريخ.

إذن ليس فيما يصيب المؤمنين في هذا الصراع من القتل والهزيمة والابتلاءات الصعبة القاسية دلالة على جبن أو ضعف أو انهيار، ما بقوا مؤمنين، وإنما هي من سنن الله تعالى في تداول الأيام الغلبة والهزيمة بين حملة التوحيد ودعاة الشرك، وهي تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين، والى هذه المعاني الرفيعة يشير الإمام الحسين عليه السلام في هذا البيت من الشعر الذي أنشده يوم عاشوراء على جند بني أمية في ساحة الطف.

وما إن شابنا جبن ولكن   منايانا ودولة آخرينا

إن ما أصابنا من قتل وجرح وقرح وهو ما كتبه الله تعالى لنا ـ في هذا الصراع ـ من المنايا، وما كتبه الله تعالى لأعدائنا من الغلبة

والسلطة، ليكون ذلك تمحيصاً لنا ولأوليائنا وأتباعنا، ومحقاً لسلطان بني أمية، وابتلاءاً لنا، واستدراجاً وإملاءً لخصومنا.

والإمام عليه السلام يستقي هذه المعاني الرفيعة التي تضمنها هذا البيت من الآيات المباركات من سورة آل عمران التي نزلت بعد معركة (أُحُد)، وهي آيات عجيبة تحول الهزيمة العسكرية في ساحة المعركة إلى شعور قوي بالاستعلاء والنصر في نفوس المؤمنين، فلنقرأ هذه الآيات من آل عمران، ولنتوقف عندها بعض الوقت:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

ثمانية دروس في آية آل عمران:

إنها آيات عجيبة تستوقف الإنسان، وتبعث على كثير من التأمل والتفكير، وفيها دروس عميقة في الثقافة القيادية والإدارية.

وأول شيء نلاحظه في هذه الآيات هو هذا الاستعلاء على الضعف والوهن والحزن، والدعوة إلى تجاوز حالة الخوف والإحساس بالضعف، وتعميق الشعور باستعلاء المسلمين على الكافرين ما كانوا مؤمنين بالله، قد شدوا حبلهم بحبل الله، واستمدوا حولهم وقوتهم من الله، واطمأنت قلوبهم بالله ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

ذلك التخلص عن الوهن والخوف والحزن، وهذا الاستعلاء على الكافرين من حقائق الإيمان، يعرفها المؤمنون جيداً، وليس وهماً، ولا من الإلقاءات والإيحاءات الوهمية.

وهذا هو الدرس الأول في آيات آل عمران ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

والدرس الثاني الاستخفاف بالقروح التي تصيبهم في المعركة، فإن هذه القروح تصيبهم وتصيب أعداءهم على حد سواء، والذي يدخل المعركة يجب أن يوطّن نفسه لمثلها. والتعبير بـ (المس)، ﴿**إِن**

يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يوحي بالاستهانة بما يصيبهم من القروح، وسرعان ما تزول وتندمل، ويعقبه الثواب والرضوان من عند الله، وهي بعد من متطلبات كل معركة، ومن أي مدخل يدخل الإنسان المعركة، من مداخل الحق أو من مداخل الباطل. ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ**﴾.

وهذا هو الدرس الثاني في آيات آل عمران.

والدرس الثالث أعظم هذه الدروس جميعاً، وأعظم مما قرأناه سابقاً، إن هذا الدرس يعطينا رؤية كونية تاريخية شاملة لمسألة الانتصار والهزيمة والانتكاسة والنجاح.

إن الرؤية الموضعية القريبة، للهزيمة والنكسة تصيب الإنسان بالوهن والحزن والخوف.

وأما الرؤية الكونية البعيدة من خلال سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع فتمنح الإنسان ثقة وقدرة على مواجهة التحديات وتجاوزها والاطمئنان بالعاقبة البعيدة أو القريبة من خلال سنن الله.

إن الذي يقتطع حدث الانتكاسة من أسبابها وعواقبها وموضعها في التاريخ يصيبه الوهن والضعف والحزن.

وأما الذي يضع (الانتكاسة) في موضعها من التاريخ ومن تداول الأيام، وضمن سنن الله تعالى، فلا يصيبه شيء من ذلك الوهن والحزن والخوف، ويخرج من المحنة والانتكاسة مطمئناً بالله واثقاً بنصر الله، عاملا لإنجاز ما يريده الله تعالى من المؤمنين لتحقيق النصر، واثقاً بوعد الله تعالى لهم بالنصر. ﴿**وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾.

وليس من الصحيح أن يقتطع الإنسان المسلم يوم النكسة من مدار التاريخ.

والدرس الرابع هو دور هذه الانتكاسات في تصفية صفوف المسلمين من العناصر المسلمة الضعيفة والمنافقة التي تدخل في الجماعة المسلمة أيام الرفاه والعافية وتتميز عنهم أيام البأساء والضراء.

وهذا هو التمحيص الأفقي داخل المجتمع وهو قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾.

والدرس الخامس أن أمثال هذه الانتكاسات تبني الجماعة المؤمنة بناءً قوياً، وتجعل منهم أئمة، وسادة، وشهداء، وقيمين على وجه الأرض... ولو كانت أيامهم كلّها تعمّها نشوة الفتوح والانتصارات، وأيام عافية ورخاء لم يتمكنوا أن يحلوا في مواقع

القيمومة والشهادة والإمامة على وجه الأرض ﴿**وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء**﴾.

إن الله تعالى إنما يتخذ منهم شهداء في مثل هذه الانتكاسات والأيام والظروف الصعبة.

والدرس السادس هو دورة التمحيص العمودي التي تدخلها هذه الأمة في مثل هذه الانتكاسات.

وهو غير دورة التمحيص الأفقي التي تحدثنا عنها.

فكما أن في المجتمع قوي وضعيف وصالح وطالح ومؤمن ومنافق... وهذه الانتكاسات تفرز المؤمن عن المنافق والأقوياء عن الضعفاء... كذلك في نفوس المؤمنين نقاط قوة وضعف، يقين، وريب، ثقة وشك، نزوع إلى التحدي والمواجهة وإيثار للعافية، حلم وغضب، عفو وانتقام.

ومثل هذه الانتكاسات تؤدي دوراً مؤثراً في تهذيب نفوس المؤمنين وعلاج نقاط الضعف، والريب، والهلع، والجزع، والخوف، والجبن، والحرص، والحسد في نفوسهم، وتعمّق حالات اليقين، والثقة، والإيمان، والعزم، والحزم، والحسم في نفوسهم... وهذا هو التمحيص العمودي داخل النفوس وهو لا يكون إلاّ في أيام البأساء والضرّاء وهو قوله تعالى: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾.

والدرس السابع هو إن هذه الانتكاسات تصيب المؤمنين والكافرين على نحو سواء في (تداول الأيام)، ولا يمكن لأمة أن تسلم منها، مهما كانت مؤمنة أم كافرة، ولكن بفارق نوعي كبير في العاقبة.

فإن هذه الانتكاسات للمؤمنين تمحيص وتهذيب وتشذيب في عرض الأمة العريض وهو (التمحيص الأفقي)، وتمحيص في عمق شخصية المؤمنين (التمحيص العمودي). ولكنها للكافرين محق وهلاك.

وشتان بين هذه العاقبة وتلك.

إن مخاض الولادة صعب ونزع الموت صعب ولكن شتان بين الصعبين.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿**وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾.

للمؤمنين ولادة جديدة وبعث جديد، وللكافرين محق وسقوط.

والدرس الثامن أن أمثال هذه الانتكاسات هي السبيل إلى دخول الجنة، ولا يحسبنّ أحدٌ أن السبيل إلى الجنة سهل يسير.

فلن يدخل الجنة إلاّ المجاهدين الصابرين الذين يعرف عنهم الله تعالى الصدق في الجهاد والصبر في المواقف... ولن يكون ذلك إلاّ

في مثل هذه الانتكاسات. ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾.

إن أمة تتلقى الانتكاسات والهزائم في التاريخ في مثل هذا الإطار الثقافي الجميل حَرِيّة أن لا يصيبها الوهن والحزن والخوف في مسيرتها التاريخية في نشر دعوة الله وتقرير دين الله على وجه الأرض وتعبيد الناس لله تعالى وتحكيم شريعة الله على وجه الأرض.

٣ ـ الفاصل الكبير بين المعسكرين

إذا كان المقاتلون في معسكر بني أمية يقاتلون ابتغاء الجائزة والذهب والفضة، ويخاطب (سنان) عبيد الله بن زياد، بعد وقعة الطف بهذا الخطاب الوقح الصلف:

إملأ ركابي فضة أو ذهبا   أنا قتلت الملك المحجّبا[1]

فإن أنصار الحسين عليه السلام يقاتلون ويقتلون رجاء رحمة الله، وليس ابتغاء شيء من متاع الدنيا... وهذا فاصل كبير وشاسع بين المعسكرين. أحدهما يعمل ابتغاء الذهب والفضة، والآخر ابتغاء رحمة الله وفضله.

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٥٤، الفتوح لابن أعثم ٥: ١٣٨، مقاتل الطالبيين: ٨٠، أمالي الصدوق: ٢٢٧ـ ٢٣٩.

ورجز أنصار الحسين عليه السلام يحفل بالكثير من هذا الشعر الهادف الذي يتضمن الإخلاص لله والعمل لوجهه الكريم وابتغاء مرضاته، والاستهانة بكل شيء آخر دون ذلك.

رحم الله (جون) بارز القوم وهو يقول:

كيف يرى الفجّار ضرب الأسود بالمشرفي القاطع المهند
بالسيف صلتا عن بني محمد أذب عنهم باللسان واليد
أرجو بذاك الفوز عند المورد من الإله الواحد الموحّد
إذ لا شفيع عنده كأحمد[1]

ويقول عبد الرحمن بن عبد الله الارحبي، وهو يرتجز يوم عاشوراء بين يدي الحسين عليه السلام في ساحة القتال الصعب، ويقول:

أنا ابن عبد الله من آل يزن ديني على دين حسين وحسن
أضربكم ضرب فتى من اليمن أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[2]

ويقول آخر من أنصار الحسين عليه السلام في ساحة القتال، وهو مالك بن دودان:

(١) بحار الانوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٦، أعيان الشيعة ٤: ٢٩٧.

(٢) انساب الاشراف ٣: ٤٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٥.

إليكم من مالك الضرغام ضرب فتى يحمي عن الكرام
يرجو ثواب الله ذو الإنعام[1]

إن الفاصل المكاني الذي يفصل بين المعسكرين قليل فقد كانت تجمعها ساحة واحدة صغيرة... ولكن الفاصل المعنوي بينهما عظيم.

أحدهما، همه الدنيا ومتاعها، وجائزة الأمير والذهب والفضة، ولا يتجاوز همه هذه الدنيا ومتاعها، والآخر همه مرضاة الله، لا يطلب من هذه الدنيا شيئاً. قد عزف عنها عزوفاً كاملاً، ورغب فيما عند الله تعالى مما لا ينفذ، من رحمته يرجو رحمة الله ويطلب مرضاته، ويبيع نفسه لله تعالى.

وهذه المقارنة بين المعسكرين يذكرنا بالمقارنة التي يذكرها أنصار الحسين عليه السلام في أرجازهم بين القيادتين: القيادة العلوية والقيادة الأموية، وما بين هاتين القيادتين من بعد شاسع في المفاهيم، والقيم، والأخلاق، والغايات، والانتماء... فهؤلاء آل علي، ينتمون إلى الله ورسوله وأعداءهم إلى حزب الشيطان، وهذا الاختلاف بين القيادتين تتطلب، لا محالة، اختلافاً بين المعسكرين.

(١) مقتل أبي مخنف: ١١٦، مناقب بن شهر اشوب ٤: ١٠٤

ولنستمع إلى أنس بن حارث الكاهلي رضي الله عنه، من أنصار الحسين عليه السلام، يرتجز يوم عاشوراء، بين يدي الإمام، ويعلن عن هذا الفارق الشاسع بين القيادة العلوية والقيادة الأموية في الغايات، والاهتمامات، والقيم، والأخلاق، فيقول:

قد علمت (كاهلها) و(الدودان)   و(الخندفيون) و(قيس عيلان)
بأن قومي قصّم الأقران   يا قوم كونوا كأسود الجان
آل علي شيعة الرحمن   وآل(حرب) شيعة الشيطان[1]

ويرتجز حبيب بن مظاهر رضي الله عنه في ساحة المعركة، ويذكّرهم بهذا الفاصل الشاسع بين المعسكرين والقيادتين في الكم، والكيف، والأخلاق، والقيم، فيقول:

أنا حبيب وأبي مظهّرُ   فارس هيجاء وحرب تسعرُ
أنتم أعدّ عدة وأكثرُ   ونحن أعلى حجّة واظهر
وانتم عند الهياج غدّر   ونحن أوفى منكم واصبر[2]

وهذه مقارنة دقيقة في الكم، والكيف، وفي القيم، والأخلاق، فهم

(١) مثير الأحزان: ٦٣، بحار الانوار ٤٤: ٣٢٠و٤٥: ٢٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٩، ٢٦٨.
(٢) مثير الأحزان: ٦٢، بحار الانوار ٤٥: ٢٦، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٦٩.

أكثر عدة، وعدداً، وقوة، ومالاً، وأنصار الحسين عليه السلام أعلى منهم وأظهر حجة، يغلبونهم بموازين العدد والعدة، ويغلبهم أنصار الحسين عليه السلام بموازين الحجة والبرهان.

وأولئك قوم غدّر ضعاف عند الهياج، وأنصار الحسين عليه السلام أوفياء لإمامهم، واصبر منهم في تحمل معاناة الحروب ومعاناتها.

وإذا كان أنصار الإمام يتميزون عن معسكر بني أمية بالحجة والبرهان، فهم يتميزون بالعناد واللجاج.

يقول حبيب رضي الله عنه في رجز آخر له في ساحة المعركة:

اقسم لو كنا لكم أعداداً   أو شطركم وليتم أكتاداً[1]
يا شر قوم حسباً وآدا   ويا أشدّ معشر عنادا[2]

فلو كان عدد أنصار الحسين عليه السلام بعدد جيش بني أمية، أو كانوا يعدون من حيث الكم شطراً يعتد به منهم ومن قوتهم لولى الجيش الأموي فراراً من بأسهم، ثم يصفهم بأنهم شر قوم حسباً وفضاعة.

ونجد هذه المقارنة في قطعتين من الشعر للإمام عليه السلام في احداهما

(١) أكتاداً: أي وليتم فرقاً وجموعا من المعركة ورد الأمر الفضيع المنكر (ظ).
(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٣٩، بحار الانوار ٤٥: ٢٦، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٧٠.

يشير إلى أصله، وأهل بيته، وجده، وأبيه، وأمه، وفيما خصهم الله تعالى به من النور والهدية، وما خص الله تعالى شيعتهم من الكرامة.

وفي الأخرى يشير الإمام ﵇ إلى بني أمية وأصولهم ومحاربتهم للإسلام وقتالهم لأبيه وأخيه من قبل وحقدهم ونفورهم من آل بيت النبي ﷺ واليك هاتين القطعتين:

القطعة الأولى: يقول﵇ في التعريف بنفسه وأسرته وأصوله:

أنا ابن علي الخير من آل هاشم　　كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدي رسول الله أكرم من مضى　　ونحن سراج الله في الأرض نزهر
وفاطمة أمي ابنة الطهر أحمد　　وعمي يدعى ذو الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادعاً　　وفينا الهدى والوحي بالخير يذكر
ونحن أمان الله في الخلق كلهم　　نسرّ بهذا في الأنام ونجهر
ونحن ولاة الحوض نسقى محبنا　　بكأس رسول الله ما ليس ينكر
وشيعتنا في الناس أكرم شيعة　　ومبغضنا يوم القيامة يخسر(١)

ويقول في القطعة الثانية في التعريف بأعدائه من معسكر بني أمية أولاً، ثم التعريف بنفسه وجده وأبيه وأمه صلوات الله عليهم:

(١) مقتل أبي مخنف ١١٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٩، العوالم (كتاب الحسين﵇): ٢٩١.

كفر القوم وقدما رغبوا　　عن ثواب الله رب الثقلين
قتلوا قدماً علياً وابنه　　حسن الخير كريم الأبوين
حنقاً منهم وقالوا اجمعوا　　نفتك اليوم جميعاً بالحسين
يا لقوم من أناس رُذّل　　جمعوا الجمع لأهل الحرمين
ثم ساروا وتواصوا كلّهم　　باجتياح لرضاء الملحدين
لم يخافوا الله في سفك دمي　　لعبيد الله نسل الكافرين
وابن سعد قد رماني عنوة　　بجنود كوكوف الهاطلين
لا لشيء كان منّا قبل ذا　　غير فخري بضياء الفرقدين
بعلي الخير من بعد النبي　　والنبي القرشي الوالدين
خيرة الله من الخلق أبي　　ثم أمي فأنا ابن الخيرتين
فضة قد خلصت من ذهب　　فأنا الفضة وابن الذهبين
من له جدّ كجدي في الورى؟　　أو كشيخي فأنا ابن العلمين
فاطم الزهراء أمي وأبي　　قاصم الكفر ببدر وحنين
عبد الله غلاماً يافعاً　　وقريش يعبدون الوثنين
يعبدون اللات والعزّى معاً　　وعليّ كان صلى القبلتين
فأبي شمس وأمي قمر　　فأنا الكوكب وابن القمرين
وله في يوم احد وقعة　　شفت الغل بفضّ العسكرين

ثـم فـي الأحـزاب والفـتح معـاً   كـان فيهـا حتـف أهـل الفيلقـين
فــي ســبيل الله مــاذا صــنعت   امــة الســوء معــاً بــالعترتين
عتــرة البــر النبــي المصــطفى   وعلـيّ القـوم يـوم الجحفلـين[1]

إن هذه المقارنة بـين الجيشـين والقيـادتين شـيء أسـاس فـي فهـم طبيعة هذه المعركة، وما تتضمن من الفرقان الـذي لا لـبس فيـه... فلـم يتّبع من اتّبع آل أمية في هذه المعركة وشهر سـيفه علـى الحسـين عليه السلام، ولـم يتخلـف مـن تخلـف عـن الحسـين عليه السلام لالتبـاس فـي أمـر هـذه المعركة... فقد كان يزيد اشهر مـن أن يخفـى أمـر فسـقه وظلمـه علـى احد وكان الحسين وموقعه من رسول الله ﷺ أوضح من أن يخفى على أحد... فلم يتخلف أحد عن الحسين عليه السلام إلا إيثـاراً للعافيـة، ولـم يشـهر أحد ممن شهر سيفه على الحسين، إلا حرباً على الله ورسوله ﷺ وأهل بيته.

ولذلك فإن إعلان وبيان الفاصل الشاسع بينهما مـن حيـث العـروج والسقوط والقيم وأضداد القيم، أمر هام في هذه المعركة.

وهذه النقطـة هـي السـبب فـي كـل هـذا التأكيـد الـذي نجـده فـي ميـراث عاشـوراء مـن الخطـاب والشـعارات فـي طبيعـة المعسـكرين

(١) كشف الغمة ٢: ٢٦، بحار الانوار ٤٥: ٤٧، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٠.

المتقاتلين في يوم عاشوراء والاختلاف الشاسع بينهما بل التقابل بينهما من حيث القيم والأهداف والأخلاق والتوحيد.

فنـرى القاسـم بـن الحسـن المجتبـى عليه السلام يرتجـز، ويخاطـب عصـبة القتلة والجلاوزة التي أحاطت بابن رسول الله ﷺ، تريد قتله، فيقول:

يـا عصـبة جـارت علـى نبيهّـا   وكـدّرت مـن عيشـها مـا قـد نقـى
فــي كــل يــوم تقتلــون ســيداً   مـن أهلـه ظلمـاً وذبحـاً مـن قفـا[1]

ويقول محمد بن عبد الله بن جعفر ابن عمّ الحسين عليه السلام منـدداً بهـذه العصبة الأثيمة وشاكياً إلى الله تعالى ظلمهم وجوره لأهل البيت:

نشــكو إلــى الله مــن العــدوان   فعــال قــوم فــي الــردى عميــان
قـــد تركـــوا معـــالم القـــرآن   ومحكـــم التنزيـــل والتبيـــان[2]
واظهروا الكفر مع الطغيان

إن قيمة التشهير بالظالمين وتسقيطهم في الإسلام لا تقل عـن قيمـة تعظيم الصالحين وتوقيرهم وتكـريمهم، والبـراءة فـي الإسـلام تـوازي الولاء قيمة، وهما طرفا قضية واحدة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٧.
(٢) مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٦، بحار الانوار ٤٥: ٣٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٧.

٤ . خيارات الحرب الصعبة

يرتجز علي بن الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذا الرجز القوي الحاسم:

الحرب قد بانت لها حقائق وظهرت من بعدها مصادق
والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تُغمد البوارق[1]

لقد بادرتم أنتم بإشعال نار الحرب، وأشهرتم علينا سيوفكم من غمادها، فقبلناها ودخلناها.

والآن، وقد اشتعلت الحرب ودخلها أبطال منا، وتساقطت منكم الرؤوس والأيدي والأرجل، وأزهقت منكم الأرواح، وتجلّت لكم منها مصاديق الحرب وحقائقها... فلا سبيل لكم للانسحاب، ولا خيار لكم إلاّ أن تغمدوا السيوف (البوارق)، التي أشهرتم بوجهنا ظلماً وعدواناً. تغمدوها هذه المرة، استسلاماً وصغاراً، أو تتساقط منكم الرؤوس والأيدي، وتتقبلوا عارها وخزيها (عار قتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله)، بين يدي الله وفي التاريخ.

إن خيارات الحرب التي أشعلها بنو أمية على الحسين عليه السلام اثنتان

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٩، بحار الأنوار ٤٥: ٤٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٨٦.

وليس أكثر، فأما أن يعلن جيش بني أمية العجز عن مواجهة أنصار الحسين عليه السلام، ويعيدوا السيوف إلى الغماد، ويعلنوا الانسحاب والاستسلام... وهذا هو الخيار الأول، وإن لم يقبل جيش بني امية بهذا الخيار، فليس أمام أنصار الحسين عليه السلام إلاّ خيار واحد فقط، وهو مواصلة الكر والقتال، حتى الهزيمة الكاملة لجيش العدو، وتسجيل الخزي والعار عليهم إلى الأبد حيث بادروا بقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يدعوهم إلى الله ورسوله.

وهذا هو معنى إنذار علي بن الحسين عليه السلام يومئذ لجيش بني أمية:

والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تُغمد البوارق

وهذه هي الحقائق والمصاديق التي تجلّت في الحرب لجيوش بني أمية.

ونقرأ نحن اليوم هذا الرجز، ونعجب مما كان ينشده هذا الشاب يومئذ على الأعداء بثقة كاملة ومن دون أي تردد أو تلجلج.

فماذا يقصد علي بن الحسين عليه السلام؟ هل يريد إخافة العدو بسطو أنصار الحسين عليه السلام عليهم، وبأسهم، وشجاعتهم النادرة، فيلقي في قلوبهم الرعب... قد يكون ذلك. فقد يجوز في الحرب من المبالغة في إظهار القوة ما لا يجوز في السلم.

ولكنني أعتقد أنّ علي بن الحسين عليه السلام يريد أمراً آخر غير هذا الوجه، فليس من المقبول أن ينكر علي بن الحسين عليه السلام في رجزه ما لا يشك أحد في ذلك وهو أن هذا اليوم (عاشوراء) يشهد مصرع الحسين عليه السلام وأنصار الحسين عليه السلام جميعا... وليس من المعقول أن علي بن الحسين عليه السلام ينكر هذه النقطة في رجزه.

إنني اتصوّر أن علي بن الحسين عليه السلام يقول لتلك العصابة المجرمة من جيش ابن زياد إنكم قدمتم إلى قتال الحسين عليه السلام وأنصاره بوهم كبير... فقد تراءى لكم إنكم سوف تكبلونهم في ساعة أو بعض ساعة، وتأتون بهم إلى ابن زياد أسرى، فيأخذ منهم البيعة للطاغية... فلما واجهتم الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء، تبين لكم أن تلك الأمنية كانت وهماً، وإنكم تواجهون اليوم ابطالاً لا يدعون السيف عن أيديهم، حتى يقتلوا منكم جمعاً كبيراً، وَيُقْتَلوا في ساحة المعركة عن آخرهم، صغيرهم، وكبيرهم. فلن تجدوا السبيل إلى ما تطلبون اطلاقاً.

وأمام جيش ابن زياد خياران لا ثالث لهما، فإما أن يتقبلوا القتال فيقتلوا منهم، ويقتلوا عن آخرهم، قبل أن تسمعوا منهم البيعة والطاعة... وعندئذ تبوؤن بخسارة الدنيا والآخرة، وبخزي الدنيا والآخرة.

فماذا يتوقع في الدنيا والآخرة ناس خرجوا لقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ليرغموه على البيعة والطاعة للطاغية ابن الطاغية، يزيد بن معاوية؟

والخيار الآخر، وهو اقرب إليكم وأيسر، وآمن لدينكم ودنياكم أن تغمدوا السيوف وتنسحبوا من القتال راضخين مستسلمين لبأس أنصار الحسين عليه السلام، وقوتهم، وصمودهم في ساحة القتال.

وهذا الخيار اولى لكم، لدينكم ودنياكم، إن كنتم احراراً في دينكم ودنياكم، ولم يستعبدكم الطاغية.

٥ ـ أُولو الأيدي والأبصار:

في يوم عاشوراء نلتقي ظاهرة نادرة في المعارك والوقائع، وهي خليط من الشجاعة والبصيرة وهذا الخليط ذو قيمة كبيرة جدا في نتائج المعركة. وبين البصيرة والشجاعة علاقة قويةّ فأن البصيرة تأتي بالشجاعة، والمقاتل الذي يمتلك بصيرة في القضية التي يقاتل من أجلها يزداد قوة وشجاعة وكفاءة في القتال.

ونحن نجد في أنصار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء هذا المزيج من البصيرة والشجاعة، بينما نجد أن المقاتلين في الجهة المقابلة يقاتلون من غير قضية ولا بصيرة... وفقدان القضية والبصيرة ينعكس سلّبياً على كفاءآتهم وقدراتهم القتالية وشجاعتهم وبسالتهم في ساحات القتال.

ونعجب ممّا ينقل أرباب السير عن الشهود الذين شهدوا المعركة كيف كان المقاتلون من جيش ابن زياد ينهزمون من أمام أنصار الحسين عليه السلام حتى كانت الخيل تقتلهم تحت حوافرها، في تزاحم الهزيمة، والتدافع للفرار، من أمام صولات أنصار الحسين عليه السلام. وهذه النقطة تفسّر لنا كثرة القتلى في صفوف جيش ابن زياد.

فلما أثخنوا جيش ابن زياد بالقتل والجرح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تصايح رجال عمر بن سعد، وقالوا لو استمرت الحرب برازاً بيننا وبينهم لأفنونا إلى آخرنا... فأمر قائدهم أن يرشقوهم بالحجار والنبال، فأحاطوا بهم وضيّقوا عليهم، وقتلوهم بالنبال والأحجار، حتى قتلوا أكثر أنصار الحسين عليه السلام بهذا النحو.

يقول الطبري في التاريخ:

لما أكثر أصحاب الحسين عليه السلام القتل في أهل الكوفة فزع أهل الكوفة من بأس أصحاب الحسين عليه السلام وسطوتهم... فصاح عمرو بن الحجاج بأصحابه: أتدرون من تقاتلون، تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم إلاّ قتلوه على قلّتهم. والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت. أرسل في الناس من يعزم عليهم ألاّ يبارزهم رجل منهم ولو خرجتم إليهم وحداناً لأتوا عليكم[١].

وكانت العرب تترفع عن هذا النحو من القتال، وتعتبره جبناً وفراراً من المواجهة ولجوءً إلى أساليب الضعاف والمهزومين. غير أنهم لم تكن لهم حيلة في هذه المواجهة غير هذا الاسلوب من القتال.

فلما برز الإمام عليه السلام إليهم بالقتال طلب منهم البراز فما أمهل أحدا يبرز إليه بالقتال حتى قتله، فأحجموا عن مبارزته فشدّ عليهم، بالهجوم فانهزموا من أمامه.. وهو رابط الجأش، يقاتل ببسالة وشجاعة وثقة كبيرة.

يقول حميد بن مسلم، وهو راوية الطف: (ما رأيت مكثوراً[٢] قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه اربط جأشا ولا أمضى جناناً منه، إن كانت الرجّالة لتشدّ عليه، فيشدّ عليها بسيفه، فتنكشف عن شماله إنكشاف المعزى إذا شد فيها الأسد).

فلما عجز عن مواجهته أمرهم الشمر (لعنه الله) أن يرشقوه بالنبال والحجارة، فرموه بالنبال حتى صار جسمه سلام الله عليه كالقنفذ.

---

(١) تاريخ الطبري: ٦: ٢٥٥.

(٢) المكثور: الذي كثر عليه الناس في القتال.

وليست الكفاءات القتالية والقوة الجسدية في أنصار الحسين عليه السلام هو كل شيء في هذا التفوق الحربي البارز على جند ابن زياد يوم عاشوراء، فقد كان في جند ابن زياد أبطال وقادة عسكريون معروفون بالبسالة والشجاعة... وإنما يعود السبب الأكبر في هذا التفوق القتالي إلى البصيرة التي كان يمتلكها أنصار الحسين عليه السلام في هذه المعركة، وفي الجهة المقابلة فقدان البصيرة والقضية في جيش ابن زياد... وهذه البصيرة كانت تمنحهم جرأة وشجاعة وقوّة، وتزيد في كفاءاتهم القتالية، بينما كان فقدان القضية والبصيرة في الجهة المقابلة من أهم عوامل ضعفهم عن مبارزة أنصار الحسين عليه السلام يومئذ.

وعابت زوجة كعب بن جابر عليه، فقالت: أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القرّاء (برير). لقد أتيت أمراً عظيماً من الأمر، والله لا أكلمك كلمة واحدة، فقال يخاطبها:

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم	ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى	ألا كُلّ من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطعن حسرة	وقد نازلوا لو أن ذلك نافع[1]

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٧.

لقد كانت المرأة العجوزة تأخذ بيدها عمود الخيمة، فتبرز لقتال العدو، فتقتل منهم اثنين أو ثلاث، فيسترجعها الإمام عليه السلام ويترحّم عليها، ويطلب منها أن ترجع إلى النساء، ويقتل القاسم بن الحسن عليه السلام وهو في عمر المراهقة لا يزيد عليها، رجالاً أشداء من القوم، ويكرّ عليهم فينهزمون من أمامه، وينحني في ساحة المعركة ـ وهو بين رجال مقاتلين أشدّاء ـ ليصلح شسع نعل له، انفلت من النعل، غير هيّاب بمن يواجه من الرجال الأشداء، فيكمن له أحدهم ويضربه بسيفه، فيرديه الأرض... وكذلك سائر أنصار الحسين عليه السلام شبابا وشيوخا ومراهقين، ولسنا نعرف تفسيرا واضحاً لكل هذه البسالة، والقوة، والكفاءة القتالية العالية، والتفوق القتالي البارز غير البصيرة التي كان يتمتع بها أنصار الحسين عليه السلام، وكان يفقدها جند ابن زياد.

وقد ذكر أرباب السير عمن شهد المعركة يومئذ أن جند ابن زياد لم يكونوا يقتلون أحدا من أنصار الحسين عليه السلام حتى يقتل منهم العشرة أو العشرين أو الأكثر...

وكلما تزاحمت عليهم المصائب ليلة عاشوراء ويومه كان يزداد وجوههم إشراقا وابتهاجا، وكان بعضهم يمازح بعض في تلك الليلة

الصعبة، وهم في حصار كامل من ناحية العدو، ولا أمل لهم مطلقاً في الخلاص من هذا الحصار.

لقد كانوا على بيّنة كاملة من أمرهم، ولم يخالجهم شك قط أن مصيرهم إلى الجنة، ومصير أعدائهم إلى النار، وأنهم على هدى وأن أعداءهم على ضلال، وأنهم سائرون إلى الله، وعدوهم إلى الشيطان.

وهذه البصيرة الكاملة والشجاعة النادرة التي تستتبعها هي سّر قوتهم وبأسهم في ساحة القتال وسّر الرعب الذي كان يدخل قلوب المقاتلين من رجال ابن زياد، فيحجمون عن قتالهم.

ولقد استغرب بعضهم عن هذا التخاذل والفرار من أمام أنصار الحسين عليه السلام، وهم قلة قليلة وأعداؤهم كثيرون.

(قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟!.

فقال: عضضت بالجندل، إنّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها، كالأُسود الضارية تحطّم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على

حياض المنيّة، أو الاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فما كنا فاعلين لا أم لك)؟![1].

وتبرز هذه الشجاعة والبصيرة في ساحة القتال فيما أثر عنهم من الرجز الذي كانوا يلقونه في ساحة القتال على أعدائهم، فتنعكس هذه الشجاعة النادرة والبصيرة الشفافة في الرجز والشعارات التي كانوا يرفعونها في ساحة القتال، فيرهبهم أعداؤهم، ويدخلهم الرعب منهم.

والمقاتل الجيد هو الذي يرهب عدوه قبل أن ينازله... ولا زال للإعلام العسكري دور كبير في تصعيد معنويات المقاتلين... وإذا كان للإعلام العسكري هذا الدور الكبير في تصعيد قدرات وكفاءات ومعنويات المقاتلين، فان الإحساس بالضعف والعجز والهزيمة النفسية من سطوة العدو له دور كبير في إحباط معنويات المقاتلين وإحباط كفاءاتهم وقدراتهم القتالية.

وفي الرجز الذي يلقيه أنصار الحسين عليه السلام في كربلاء نجد هذا العنوان واحدا من أبرز العناوين التي تغطي مساحة كبيرة من هذه الشعارات.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٣: ٢٦٣، حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ باقر القرشي١: ١١٨.

يقول برير:

أنـــا بريـــر وأبــــي خضـــير   ليـث يـروع الأسـد عنـد الزئيـر[1]

ويقول بشر بن عبد الله:

قــد علــم القــوم إذا تواكلــوا   وأحجــم الفرســان أو تناضــلوا

إنــــي شــــجاع بطـــل مقاتـــل   كـــأنني ليـــث عـــرين باســـلُ[2]

ويقول أنيس بن معقل الاصبحي:

أنــا أنــيس وأنــا ابــن معقــل   وفي يميني نصل سيف مُصقل[3]

أعلو بـه الهامـات وسـط القسطل   حتـــى أزيـــل خطبـــه فينجلـــي

ويقول جون غلام أبي ذر:

كيف يرى الفجار ضرب الأسود   بالمشـــرفي القـــاطع المهنـــد[4]

ويقـول الغـلام التركـي الـذي ورد اسـمه فـي بعـض المصـادر بإسـم (اسلم):

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٥، العوالم (كتاب الحسين): ١٦٩، ٢٥٩، أعيان الشيعة ٣: ٥٦٢.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٥: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٧، العوالم (كتاب الحسين): ٢٣٨.

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ١٩، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٣، أعيان الشيعة ٣: ٥٠٧.

(٤) أنساب الأشراف ٣: ٤٠٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين): ٢٦٦.

البحر من طعني وضربي يصطلي   والجـو مـن نبلـي وسـهمي يمتلـي

إذا حسـامي فـي يمينـي ينجلـي   يشــق قلــب الحاسـد المبُجّــل[1]

وهو من أروع ما نعرف من الرجز في التغني بالشجاعة والقوة.

وفي شعر الرجز لأنصار الحسين الكثير من هذا اللون من الشعر.

ثم تمتزج هذه البطولة والشجاعة في رجزهم بـالتعريف والإعـلان بالبصائر التي رزقهم الله تعالى فـي هـذه المواجهـة فيكـون الرجـز مـن أجمل وأروع ما نعرف من رجز المقاتلين في ساحة القتال.

يرتجز جون غلام أبي ذر يوم عاشـوراء ويعلـن للعـدو شـجاعته النادرة وبصيرته النافذة، فيقول:

كيف يرى الفجار ضرب الأسود   بالمشـــرفي القـــاطع المهنـــد

بالسـيف صـلنا عـن بنـي محمـد   أذب عـــنهم باللســـان واليـــد

أرجـو بـذاك الفـوز عنـد المـورد   مـــن الإلـــه الواحـــد الموحـــد

شجاعة نادرة ورجاء وثيق بالفوز عند الله.

ويضرب الفتى اليمني عبد الرحمن بن عبد الله الارحبي... العدو بسيفه، وهو يرجو بثقة واطمئنان الفوز، عند الله بالجنة:

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٢٤، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٣٠.

أنـا ابـن عبـد الله مـن آل يـزن　　دينـي على ديـن حسين وحسـن
أضربكم ضرب فتـى مـن اليمـن　　أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[1]

وهذا المزيج من الشجاعة والبصيرة هو الذي يحدثنا عنه القرآن في وصف إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[2].

أي أُولوا القوة والبصيرة. والله تعالى يحب اجتماع القوة والبصيرة في عباده. وكما تجتمع البصيرة مع القوة والشجاعة في أنصار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، كذلك تجتمع البصيرة مع الصبر والصمود فيهم في هذا اليوم. وسوف نتحدث عنه إن شاء الله فيما بعد.

٦. الصبر والبصيرة

هما ضرورتان من أهم ضرورات الصراع... فلا بد في الصراع من الصبر.

ومن لا يصبر أو ينفذ صبره في ساحة الصراع يسقط لا محالة ولا بد مع الصبر من بصيرة... وقد كان أنصار الحسين عليه السلام أولي بصيرة وصبر، وكان جند ابن زياد يفقدون هذا وذاك.

(١) الفتوح لابن أعثم ٥: ١١٩، أنساب الأشراف ٣: ٤٠٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٥.

(٢) سورة ص: ٤٥.

وهذا هو سرّ عجزهم عن مبارزة أنصار الحسين عليه السلام، ومحاربتهم لهم عليهم السلام بالرشق بالنبال والأحجار، وهو حيلة العاجز عن القتال.

نعم. لابدّ للمقاتل في ساحة القتال من الصبر والبصيرة.

ولكن أيهما قبل الآخر البصيرة أم الصبر؟

لا شك في أن البصيرة هي مفتاح الصبر، وكلما كان الإنسان أكثر بصيرة كان أعظم صبراً، والإنسان يصبر على ما يعلم ولا يصبر على ما لا يعلم.

ولكن مع ذلك كله فان الصبر يزيد صاحبه بصيرة، وبين الصبر والبصيرة علاقة جدلية، كل منهما يؤدي إلى الآخر، ولهذه الحالة التبادلية بين خصال النفس مظاهر كثيرة في نفس الإنسان.

ولقد كان أنصار الحسين يجمعون بين الصبر والبصيرة... وفي الرجز الذي كان يلقيه أنصار الحسين عليه السلام في ساحة القتال... نجد هذا التزاوج بين الصبر والبصيرة بارزاً، يملأ مساحة واسعة من الرجز.

فكان خالد بن عمر ينشد في ساحة القتال هذه الأبيات من الشعر:

صبراً على الموت بني قحطان　　كيما تكونوا في رضا الرحمن
ذي المجد والعزة والبرهان　　وذي العلى والطول والإحسان

يـا أبتـا قـد صـرت فـي الجنـان　　فــي قصــر ربّ حســن البنيــان[1]

يدعو نفسه إلى الصبر، كيما ينال رضا الله تعالى.

ثم يخاطب أباه بما صار إليه، وكأن الله تعالى فتح عن بصيرته في تلك الساعة، فرأى ما حباه الله تعالى من الجنان.

يـا أبتـا قـد صـرت فـي الجنـان　　فــي قصــر ربّ حســن البنيـان

ويتشوّق سعد بن حنظلة التميمـي(مـن أنصـار الحسـينعليه السلام)رضي الله عنه فـي تلك الساعة إلى الجنة، والى ما يرزقه إليه فيها من حور العين، فيـدعوا نفسه أن يجتهد في القتال لينالها. فيقول:

صـبراً علـى الأسـياف والأسـنة　　صــبراً عليهــا لــدخول الجنــة

وحــور عــين ناعمــات هنــه　　لمــن يريــد الفــوز لا بالظنــة

يــا نفــس للراحــة فأجهدنــه　　وفـي طـلاب الخيـر فارغبنـه[2]

ويخاطب عمر بن خالد الأزديرضي الله عنه نفسه في ساحة القتال ويـدعوها إلى الصبر والصمود بوجه الأعداء وألاّ يجزع من بريق السـيف... فمـن لا يجزع اليوم من مواجهة السيوف والأسنة يعيش فـي رحـاب الأمـان عند الله غداً.

---

(١) مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهرآشوب٤: ١٠١، بحار الانوار٤٥: ١٨.

(٢) الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٩، ١٠١، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسينعليه السلام):٢٦٢.

يقولرضي الله عنه:

اليـوم يـا نفـس إلـى الـرحمن　　تمضــين بــالروح وبالريحــان

لا تجزعــي فكــل حــي فــان　　والصـبر أحظـى لـك بالأمـان[1]

ويرتجز شبل الحسن المجتبى القاسم عليه السلام، ويقول:

لا تجزعـي نفسـي فكـل فـاني　　اليــوم تلقــين ذرى الجنــان[2]

ولماذا الجزع؟ وهل يبقـى أحـد إلـى الأبـد؟ فـإذا كـان الإنسـان لا محالة يموت فخير الموتِ الموتُ تحت بريق السيوف.

ثـم يخاطـب نفسـه مطمئنـاً، واثقـا بمـا يعـدها (اليـوم تلقـين ذرى الجنان).

ونجد هذا الصبر والبصيرة فيما كان ينشده الإمـام الحسـينعليه السلام فـي ساحة القتال، يخاطب نفسه بان هـذا الـذي يلقـاه هـو المـوت الـذي لا مفر منه لأحد، ولا بد أن يتجرعه كل أحد، وهو أمر الله تعالى وقضاؤه الذي لا راد له عن عباده وأنّ الموت يطال الجميع، ولا أحد ينجو مـن الموت.

---

(١) الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٨، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١.

(٢) أمالي الصدوق:٢٢٦: ٢٣٩، بحار الانوار٤٤: ٣٢١، العوالم (كتاب الحسينعليه السلام): ١٧١.

فهو حكم الله تعالى في خلقه لا يسلم منه بر ولا فاجر، وإذا قضى الموت على سروات قومه وأنصاره، فقد أفنى القرون الأولى.

فلا يشمت الشامتون بموتهم،فسوف يلقون من الموت ما يكرهون، وهم خاسرون:

إذا ما الموت رفّع عن أُناس　　كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي　　كما أفنى القرون الاولينا
فلو خلّد الملوك، إذن خلدنا　　ولو يبقى الكرام إذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا　　سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

فإذا أبصر الإنسان هذه الحقائق، وعلم أنه لا رادّ لقضاء الله، صبر لأمر الله وقضائه، وتقبله أحسن قبول بالصبر والاطمئنان إلى أمر الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول مسلم بن عقيل عليه السلام:

هوالموت فاصنع ويك ماأنت صانع　　فأنت لكأس الموت لا شك جارع
فصبراً لأمر الله جلّ جلالُه　　فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

ونقرأ في الزيارة المعروفة بـ (بأمين الله):

(١) مثير الأحزان:٥٥، الملهوف: ١٥٧، بحار الأنوار: ٤٥: ٩ العوالم: (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٥٣.

(اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك).

إن الاطمئنان بقضاء الله وقدره عند نزول البلاء وحلول المصيبة يرتبط بشكل مباشر بما يملك الإنسان من البصيرة، فكلّما كان حظّه من البصيرة أعظم كان صبره واطمئنانه بقضاء الله تعالى وقدره أعظم.

٧ـ السيف الأداة المفضلة للإثبات

رحم الله احمد بن محمد الهاشمي من أنصار الحسين عليه السلام في كربلاء كان يرتجز يوم عاشوراء بين يدي الحسين عليه السلام ويقول:

اليوم أبلو حسبي وديني　　بصارم تحمله يميني
أحمي به يوم الوغى عن ديني[1]

السيف رمز القوة ورمز الحرب والمعارك الدامية و(أبلو حسبي وديني) أي اختبر صدق شرف حسبي وقوة ديني بالسيف... ويمكن أن يكون المقصود من (أبلو) الإثبات، أي اثبت شرف حسبي وصدق ديني بالسيف.

وفي حياة الناس الادعاء كثير، والإثبات قليل. وما أكثر ما يدعي

(١) مقتل أبي مخنف: ١١٧، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٥، أعيان الشيعة ٣: ١٥٧.

الناس الأحساب، والقيم، والثبات، والقوة، والمواقع، وقليل منهم من يستطيع أن يثبت ما يدعيه.

ومن افضل وسائل الإثبات (السيف).

السيف اصدق إنباءاً من الكتب ... في حدّه الحد بين الجدّ واللعب

كما أن السيف أقوى وسيلة للدفاع. ولا يحمي الإنسان دينه وتراثه وأُصوله وعروقه وقيمه وأمته بأفضل من السيف.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّه كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

ويرتجز أبو الفضل العباس عليه السلام يوم عاشوراء في ساحة القتال ويقول في هذا السياق، بعد أن قطع الأعداء يمينه:

والله إن قطعتم يميني ... إنّي أحامي أبدا عن ديني
وعن إمام صادق اليقين ... سبط النبي الطاهر الأمين[2]

وناهيك من موقف وشعار، يعلنه أبو الفضل العباس عليه السلام وقد قطع

(١) الحج: ٤٠.

(٢) مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٨٣.

العدو يمينه، والدم ينزف من يده نزيفاً، وهو يعلن ولاءه لأخيه، ودفاعه عن الدين بالسيف والدم.

٨. تحدي الموت

الموت حتمية من الحتميات الكونية في حياة الإنسان، شاء الإنسان أو لم يشأ. ومن مواضع قهر الله لعباده، تتجلى فيه صفة القهر الإلهي، ولا أحد يرجو أن يفلت من الموت، ولا أحد يحاول أن يسترجع حياة من تعزّ عليه حياته إذا وقع عليه الموت.

والموت حق لا يرتاب فيه أحد إنه نازل به، ولكن الناس مع ذلك يتغافلون عنه حتى كأنّ الموت يتجاوزهم.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما خلق الله عز وجل يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت**»[1].

ولا يكاد أن يفلت أحد من قبضة الموت.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**انتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وان فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلّكم، الموت معقود بنواصيكم**»[2].

(١) ميزان الحكمة ٩: ٣٩١٠.

(٢) ميزان الحكمة ٩: ٣٩١١.

وعنه عليه السلام أيضاً: «**إذا كنت في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى**»[1].

فكيف إذن نتعامل مع الموت؟

وعلى الإجابة على هذا السؤال تتوقف الإجابة على سؤال آخر وهو كيف نعيش؟

فان لنهج معيشة الإنسان وحياته وكرامته علاقة وثيقة بطريقة تعامله مع الموت، فإذا كان يخاف الموت ويجزع منه، وهو حق لا مفر منه تُذلّه الحياة، وإذا كان يتلقى الموت من غير جزع ولا فزع، ويتقبل هذه الحقيقة الحتمية التي لا مفر لأحد منها، من غير خوف وجزع عاش عزيزاً.

فان الهوى والطاغوت ويذلاّن من يلتصق بالحياة، ويتهرب من الموت... ولا يتمكنان ممن يتقبل الموت ويوطّن نفسه له، فإذا حلّ به تلقاه من غير رعب ولا فزع.

وعندما نقرأ نحن اليوم الرجز الذي كان ينشده الحسين عليه السلام وأنصاره يوم عاشوراء... نجد تعاملاً متميزاً من قبلهم عليهم السلام تجاه الموت.

---

(١) المصدر السابق.

فهذا أبو إسحاق إبراهيم بن حصين الأسدي يرتجز فيقول:

اضرب منكم مفصلاً وساقا   ليهرق اليوم دمي اهراقا

أو يرزق الموت أبو إسحاقا[1]

إنه يتقدم إلى ساحة القتال طالباً للموت:

ليهرق اليوم دمي إهراقا   أو يرزق الموت أبو إسحاقا

والذي يستقبل الموت لا يجزع من شيء، ولا يرعبه شيء.

ونستمع إلى رجز مسلم بن عقيل عليه السلام، وقد أحاط به القوم في الكوفة، فيقول، مستقبلاً للموت صابراً عليه، مؤمناً بقضاء الله وقدره في الموت، إذا حلّ بالإنسان، غير متهيّب و فزع ممن يحيطه من القتلة، فاستمع إليه:

هوالموت فاصنع ويك ماأنت صانع   فأنت لكأس الموت لا شك جارع

فصبراً لأمر الله جلّ جلالُه   فحكم قضاء الله في الخلق ذائع[2]

ونستمع إلى يحيى بن سليم المازني رضي الله عنه يرتجز يوم عاشوراء، مستقبلاً الموت غير متهيب، منه يعلن ذلك للقتلة الذين يحيطون به:

---

(١) مناقب ابن شهر اشوب ٤: ١٠٥، أعيان الشيعة ٢: ١٣٦.

(٢) مناقب ابن شهر أشوب ٤: ٩٣، بحار الانوار ٤٤: ٣٥٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٠٣.

لا ضـربن القـوم ضـرباً فيصـلا   ضرباً شديداً فـي العـدى معجّـلا
لا عــاجزاً فيهــا، ولا مولـــولا   ولا أخـاف اليـوم موتـاً مقـبلاً
لكنني كالليث احمي أشبلا[1]

ويعلـن أبـو الفضـل العبـاس عليه السلام أخ الحسـين عليه السلام للعـدو فـي قلـب العسكر أنه غير متهيـب مـن المـوت، ولا جـازع منـه، وأنـه خـرج مـن المدينة مع الحسين عليه السلام طالباً للموت:

لا أرهب الموت إذا الموت رقـا   حتى أوارى في المصاليت لقـى
نفسي لسبط المصطفى الطهر وقـا   أنـي أنـا العبـاس أغـدو بالسـقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقى[2]

ثـم يقسـم بـالله الأعـز الأعظـم وبـالحجون وبزمـزم وبـالحطيم وبالمسجد الحرام: أن يواصل اليوم القتال حتـى يخضـب دمـه جسـمه، ويلقى الله مخضباً بدمائه على يد شر خلقه، وهو يدعوهم إليه عز وجل:

أقسـمت بـالله الأعـز الأعظـم   وبـــالحجون صـــادقاً وزمـــزم
وبـــالحطيم والفنـــا المحـــرم   لَيُخضـبنّ اليـوم جسـمي بالـدم

(١) مناقب بن شهر اشوب ٤: ١٠٢، بحار الأنوار ٤٥: ٢٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٦٧.
(٢) مقتل أبي مخنف: ٩٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٣٨٣، العباس بن علي، المقرم: ٢٠٩.

دون الحسين ذو الفخار الأقـدم   إمـام أهـل الفضـل والتكـرم[1]

ويهوّن على نفسه الموت، ويسترخص قيمة الحياة الـدنيا ولـذاتها بعد مصرع الحسين عليه السلام ويرفض أن يعيش من بعد الحسين عليه السلام فيتمتع بالدنيا من دونه عليه السلام:

يا نفس من بعد الحسين هـوني   وبعــده لا كنــت أن تكـــوني
هـذا الحسـين شـارب المنـون   وتشـــربين بـــارد المعـــين
هيهـات مـا هـذا فعـال دينـي   ولا فعـــال صـــادق اليقـــين[2]

٩ . مثلث (الموت والعار والنار)

ينشد الإمام الحسين عليه السلام بيتاً من الرجز في يوم عاشوراء، يستوقف الإنسان ويحتاج إلى تأمل وتفكير وهو:

المـوت خيـر مـن ركـوب العـار   والعار أولى مـن دخـول النـار[3]

في هذا البيت يشير الإمام عليه السلام إلى الخيارات التي تتفق للإنسان في مفارق الحياة الصعبة من (الموت) و(العار) و(النار).

(١) مقتل أبي مخنف ٩١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مثير الأحزان: ٧٢، بحار الأنوار ٤٥: ٥٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٩٣.

وهذه الخيارات تصادف الناس كثيراً، فيجب على الإنسان أن يحافظ على الأولويات في هذه الخيارات.

والإمام ﷺ يحدد منهج الأولوية في هذه الخيارات بهذا الشكل الواضح، إذا كان خيارات الإنسان بين الموت والذل فلا يتردد من اختيار الموت على الذل. (الموت أولى من ركوب العار)

وقد روي في هذا المعنى عن الإمام علي ﷺ:

(إن المنيّة قبل الدنية)[1].

وروي أيضاً عنه ﷺ:

(المنية ولا الدنية، والتقلّل ولا التوسل)[2].

إن الالتصاق بالحياة الدنيا والجزع من مفارقة الدنيا هو مصدر الذل والصغار في حياة الإنسان، وكلما كان طمع الإنسان في الدنيا وطول أمله فيها أكثر كان أذلّ.

عن الإمام الصادق ﷺ:

(من أحب الحياة ذلّ)[3].

(١) تحف العقول: ٩٥.

(٢) غرر الحكم:٣٦٢.

(٣) ميزان الحكمة٣: ١٣٢٤.

إن حب الحياة يدفع الإنسان إلى ركوب الذل، فإذا شاء الإنسان أن يعيش عزيزاً، فعليه أن لا يلتصق بالدنيا، ولا يُدخل حب الدنيا إلى قلبه، فما دخل حب الدنيا قلباً إلا أذلّ صاحبه، ووطّنه لقبول الذل والصغار.

وقد خاطب الحسين يوم عاشوراء معسكر بني أمية في كربلاء، وقال:

«**ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين: بين (السلة) و(الذلة)، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، لا تؤثر مصارع اللئام على مصارع الكرام**»[1].

وقد روى عنه ﷺ في هذا المعنى أيضاً:

«**موت في عز خير من حياة في ذل**» [2].

وهذا هو المفرق الأول... والخيار الكريم فيه الموت.

والمفرق الثاني أن يقف الإنسان بين (العار) و(النار)، والمقصود بـ (النار) هو غضب الله سبحانه. وفي هذا المفرق لا يتردّد الإمام ﷺ في أن يقدم العار على النار: (والعار أولى من دخول النار).

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ١٩٢.

وقد ذكرنا أن دخول النار هو غضب الرحمن وخلافه هو رضا الله... فإذا كان غضب الرحمن في الهروب من العار، ورضاه في تحمّل العار، فيما يبتلي الله تعالى عباده في دائرة الابتلاء الصعب، فلا شك أن مرضاة الله تتقدم على كل شيء آخر، وفوق كل شيء، ولا يزاحمه شيء... إن رضا الله لا يكون قسيماً لشيء إلاّ ويتقدّم عليه...

وقد عرف إبراهيم عليه السلام إن الله تعالى يأمره أن يذبح ابنه إسماعيل، فلم يتردد في أن يفاتح ابنه بذلك، ولم يتردد الولد أن يستجيب لأمر الله، ولم يتردد الوالد والولد عليهما السلام، في أن ينفّذا أمر الله تعالى، من غير تردد وتوقف.

وها هنا عقبة صعبة من عقبات الحركة إلى الله تعالى.

فقد جعل الله تعالى في نفوسنا أهواءً وشهوات، وجعل في نفوسنا رحمة ورأفة، وجعل في نفوسنا فطرة ووعياً فطرياً.

ثم جعل أمره وحكمه فوق كل ذلك، وابتلانا نحن عباده بتقديم أمره وحكمه على كل ذلك.

فيأمرنا بتقديم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من غرائز وشهوات.

ويأمرنا أن نقدم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من رأفة ورحمة... يقول تعالى في إجراء الحد على الزاني والزانية:

﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ**﴾[1].

وقد يهون على الإنسان أن يعارض ما أودع الله في نفسه من الغرائز والشهوات، ولكن يشق عليه أن يتغلب على ما جعل الله في نفسه من الرأفة والرحمة.

ويأمرنا بتقديم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من الفطرة، وفطرة الإنسان تأبى قبول الذل، وقد يمتحن الله تعالى عبده في هذه النقطة بالذات، وهي من اشق النقاط على المؤمن، امتحان الله تعالى لعباده صعب، وليس امتحان الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل حالة استثنائية في تعامل الله مع عباده، فإن الامتحان سنة إلهية جارية، يمتحن الله تعالى بها انقياد عباده وخضوعهم له... فإذا كان كذلك وتعلّقت إرادته تعالى بامتحان عباده في الذل، فالأمر كما قال الحسين عليه السلام:

(والعار أولى من دخول النار).

(١) النور: ٢.

١٠ ـ الموت الأخضر

جميع الناس يموتون، ولا أحد يفلت من قبضة الموت ولكنّ الموت على نحوين... فقد يكون الموت عقيماً، ينقص به من الأحياء حي، ولا يضيف إلى عدد الأحياء شيئاً... وهذا هو الموت العقيم... وقد يكون الموت حدثاً مباركاً في حياة الأحياء يمنحهم العزة والقوة، ويدفع عنهم كابوس الظلم.. .وهذا هو الموت الأخضر، الذي يتحول إلى الحياة الطيبة في حياة الناس في الدنيا، وفي حياته هو في الآخرة... وليس بين الموت العقيم والموت الأخضر النافع للناس من فرق إلا أياماً معدودة، والذين بخلوا بأنفسهم عن موافقة الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد لم يبقوا بعد الحسين عليه السلام غير بضع أيام أو بضع اشهر أو بضع سنوات... وهي فترة قصيرة في حساب التاريخ، ولكنهم خسروا الموت والحياة جميعاً.

آثروا حياة الذل والخنوع على موتة العز والكرامة والدفاع عن دين الله والمستضعفين من عباده.

وما أجمل كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في مخاطبة أهل العراق عندما كان يدعوهم ليخرج بهم إلى قتال معاوية:

«الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»[1].

إن الذين يعيشون مقهورين للظالمين، أذلاء عندهم، يسلبهم إرادتهم وكرامتهم... هؤلاء في الحقيقة أموات، وليسوا بأحياء، فأن حياة الذليل المقهور للظالم نحو من الموت على هيئة الحياة، وبالعكس، الذين يؤثرون مصارع الكرام على حياة اللئام أحياء (عند ربهم يرزقون) وإن غابت أجسامهم عن الناس... يورثون مجتمعهم وأبنائهم العزة والكرامة من بعدهم... وهذا هو الموت الأخضر الذي تحدثنا عنه.

وهذا الموت هو الذي يصوّره الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذه الصورة الجميلة الرائعة.

إن القتل في وسط الهيجاء ليس من الهزيمة، ولا من الذل في شيء، إذا قاتل الإنسان وواسى الصالحين بنفسه، وجاهد الكفار، وفارق الأشقياء العصاة، وخالف المجرمين، وجاهدهم... فإذا كتب الله تعالى له العيش عاش سعيداً، من غير تأنيب الضمير، وان مات مات سعيداً من غير لوم...

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥١.

سأمضي ومابالموت عارعلى الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً وخالف مجرما
فان عشت لم اندم وان مت لم أُلَمْ كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما(١)

وإنما الذل والعار أن يعيش الإنسان مرغماً مقهورا للظالمين، وليس العار في أن يموت الإنسان وهو يجاهد الظالمين والمجرمين.

وللحسين عليه السلام كلام عن الموت في مكافحة الظالمين والحياة مع الظالمين عندما التقى بالحر بن يزيد الرياحي رضي الله عنه في بعض منازل الطريق، له صلة بهذا الحديث. يقول عليه السلام:

«ألا ترون أن الحق لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه. ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، فأني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

إن الموت في مجاهدة الظالمين سعادة والحياة مع الظالمين مذلة، ومهانة، وشاقة، وصعبة، ومملة.

ويرتجز عبد الله بن مسلم بن عقيل رضي الله عنه، ويقول:

(١) تاريخ الطبري٥: ٤٠٤، مثير الاحزان٤٥، الكامل في التاريخ٤: ٤٩.

أقسمت لا اقتل إلا حرا وإن وجدت الموت شيئاً مرّا
أكره أن أدعى جباناً فرا إن الجبان من عصى وفرا(١)

يؤثر هذا الشاب موت الأحرار، مهما كان مرّاً، على حياة الجبناء، الفارين من الموت، وهو رضي الله عنه يقتبس هذا الرجز من رجز لأبيه مسلم بن عقيل رضي الله عنه بالكوفة، عندما كان يقاتل جلاوزة ابن زياد، وهم يقاتلونه بالسيوف والرماح والنبال، فيقول:

أقسمت لا أقتل إلاّ حرّا وان رأيت الموت شيئا نْكرا
أكره أن أخدع أو أغر أو يخلط البارد سخناً مرا(٢)

فيقسم ألاّ يقتل إلا حرّا، ويضرب بسيفه ويجندل الرجال وأن كان الموت أمراً نكراً صعباً.

ويكره أن يخدع عن نفسه أو يملكه الغرور، أو يختلط في حياته برد الكرام بسخونة الحياة الذليلة مع الظالمين، ويستسلم للموت في كرامة وعزة في مجاهدة الظالمين ويصبّر نفسه بذلك، ويقول عليه السلام:

(١) أمالي الصدوق:٢٢٥، ٢٣٩، بحار الانوار٤٤: ٣٢١: ١، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧٠.
(٢) مروج الذهب٣: ٥٨، مقاتل الطالبيين:٦٩، تاريخ الطبري٥: ٣٧٤، الإرشاد المفيد٢: ٥٨.

هوالموت فاصنع ويك ماأنت صانع　　فأنت لكأس الموت لا شك جارع
فصــبراً لأمــر الله جــلّ جلالُــه　　فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

١١ـ القراءة الصحيحة للتاريخ

من تجليات الوعي والبصيرة في ساحة كربلاء لأنصار الحسين عليه السلام الفهم الدقيق لموقع بني أمية في الإسلام... وهذا الوعي مما يفقده الكثير من أصحاب الفكر والنظر من المسلمين حتى اليوم.

لقد حارب أبو سفيان والد معاوية وجد يزيد الإسلام طويلا قبل الهجرة وبعد الهجرة، وكاد للإسلام، ومعه ابنه معاوية، وأم معاوية (هند)، ووزيره عمرو، ثم دخل الإسلام مُكْرَها في فتح مكة، حيث لم يجد بُدّاً من إعلان الإسلام... ولم يُعْرف عنه في إسلامه غير أحاديث وقضايا منكرة، يذكرها أصحاب السير، ورغم حرص بني أمية على التعتيم على إخباره وأحاديثه المنكرة بعد دخوله في الإسلام فأن ما يظهر من فلتات أقلام المؤرخين أمر فظيع، مثل: قوله لجيش الروم حين كانوا يميلون على جيوش المسلمين (إيه بني الأصفر)، وقوله لعثمان، وقد تولى الخلافة، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار، فزجره عثمان... وأمثال ذلك...

وتولى ابنه يزيد الشام في عهد الخليفة الثاني، ثم تولى من بعده ابنه الآخر معاوية ولاية الشام على عهد الخليفة الثاني أيضاً... فلما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان امتنع عن بيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وشقّ جماعة المسلمين وفصل الشام، ودخل في معركة ضارية مع أمير المؤمنين عليه السلام، ثم مع الإمام الحسن عليه السلام ثم قاتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام وأستمر خلفاء بني أمية في لهوهم، وفجورهم، وإسرافهم في بيت المال، وإفسادهم في الدولة، وبذخهم، وترفهم، ومجونهم، وظلمهم، وحدِّث ولا حرج عليك.

فكيف نفهم هذا التاريخ؟ وأين نضع بني أمية بعد دخولهم في الإسلام بهذا التاريخ الذي نعرفه عنهم؟

أين يقع صفين والطف من بدر؟

وأين مواقع بني أمية بعد الإسلام؟

روي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال:« كنا بصفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى ـ استظللنا ببُرد احمر، إذ أقبل رجل يستقري الوجوه حتى انتهى إلينا فقال: أفيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار بن ياسر: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال:

نعم، قال: إن لي حاجة إليك فانطق بها علانية أو سراً؟ قال: أختر لنفسك أي ذلك شئت. قال: لا، بل علانية، قال: فانطق.

قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه، لا اشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنهّم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه صباح يومنا هذا، فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة، فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبتّ بليلة لا يعلمها إلاّ الله حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: **هل لقيت عمار بن ياسر؟** قلت: لا، قال: **فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه، فجئتك لذلك.**

قال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن، ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن، أشَهِدْتَ بدراً وأُحداً وحنيناً أو شَهِدَها لك أبٌ فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، وإنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من

الأحزاب.

هل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا، مفارقا للذي نحن عليه، كانوا خلقا واحدا، فقطّعته، وذبحته. والله لدماؤهم جميعا أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا، بل حلال، قال: فأنهم كذلك حلال دماؤهم، أتراني بيّنت لك؟ قال: قد بيّنت لي، قال: فاختر ايّ ذلك أحببت.

قال: فانصرف الرجل، ثم دعاه عمار بن ياسر فقال: أما أنّهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا، والله ما هم من الحق على ما يُقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يُبلغونا سعفات هجر، لعرفت إنّا على حق، وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سلما سالما أبدا حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة، ولا ينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة، وان موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحياؤهم على الباطل»[1].

(١) صفين لنصر بن مزاحم: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

إنّ القراءة صحيحة للتاريخ تربط ما بين بني أمية قبل الإسلام ما بعد الإسلام للتشابه الكبير بين سلوكية هذه الأسرة قبل وبعد الإسلام.

لقد انتزع الإسلام من آل أبي سفيان مواقعهم وزعامتهم في الجاهلية.

كما أحدث تغييرا واسعا في الأعراف الجاهلية التي كانت تحتضن هذه المواقع...

وكانت مهمة آل أبي سفيان بعد دخولهم في الإسلام استعادة مواقعهم في الجاهلية وإعادة الأعراف الجاهلية التي كانت تحتضن هذه المواقع في الجاهلية.

فلا يمكن أن يعيش معاوية في قصور الشام، يسرف في أموال المسلمين، ويقتل، ويظلم، ويقترف الإثم إلاّ بتحريف القيم التي جاء بها الإسلام في علاقة الحاكم بالرعية ومواساة الحاكم لرعيته، وتقشّف الحاكم في مصرف بيت المال وكانت هذه النقطة بالذات السبب الرئيسي في معارضة أبي ذر رضي الله عنه لمعاوية...

فقد وجد أبو ذر رضي الله عنه أن معاوية أحدث بدعا واسعة في دين الله من موقع الخلافة، فثار في وجه معاوية، وقام في أسواق الشام ومجامعه

ينكر على معاوية سرفه وإفساده وما يرتكب من المنكرات، وما يدخل في قصره من الشراب الذي حرمه الله، واختراقاته لحدود الله تعالى وأحكامه.

إن آل معاوية يعرفون، ما يعملون، إنهم يستعيدون مواقعهم الذي جرّدهم الإسلام عنها، من خلال الإسلام نفسه هذه المرة. فكان خطر بني أمية على الإسلام بعد إسلامهم أكبر من خطرهم على الإسلام قبل إسلامهم...

ويصطف الطرفان هذه المرة في صفين والطف بعد (بدر) و(أُحد).

يقف معاوية وعمرو على مواقع أبي سفيان وأبي جهل في بدر، ويصطف معهم طائفة كبيرة من أهل الشام ممّن غَرّر بهم عمرو ومعاوية، فجاءوا بهم إلى هذا الموقع للنيل من الإسلام، ولتثبيت ما استعادوه من مواقعهم في الجاهلية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويقف علي والحسن والحسين عليهم السلام على التوالي في صفين، إلى الطف مواقع رسول الله وأصحابه في بدر للدفاع عن الإسلام وتحصين الإسلام من عدوان بني أمية وتحريفاتهم، ولحماية مواقع القيادة والولاية في الإسلام من أمثال معاوية ويزيد.

إذن المعركة في صفين والطف هي ذاتها المعركة في بدر، غير أن بني أمية حاربوا الإسلام في بدر من خارج الجسم الإسلامي، وحاربوا الإسلام في هذه المرّة من داخل الجسم الإسلامي...

وها هنا موقع الخطر.

ويضيف ابن معاوية بن أبي سفيان، في موقع الطف، على ما فعله أبوه وجده من قبل في موقع بدر أن يعلن هذه المرة، الانتقام والثأر من محمد آل محمد ﷺ لقتلاهم في بدر...

وإذا كان نصيب جده وأبيه في بدر الهزيمة من المسلمين من رسول الله ﷺ وأصحابه... فهذه المرة كانت الهزيمة (العسكرية) في كربلاء في جانب آل محمد ﷺ.

فيقول يزيد على ملأ من الناس:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف إن لم انتقم ... من بني احمد ما كان فعل

والأبيات هذه أشهر من أن يشك بها أحد فقد رواها المؤرخون وأرباب السير جميعاً، وحكم فقهاء الإسلام من المذاهب المختلفة بكفر يزيد وجواز لعنه بهذه الأبيات[١].

اجل، انه يبتهج بقتل سادات أهل البيت عليهم السلام انتقاما لمصرع جدّه عتبة وخاله وغيرهم من المشركين في بدر، فعادلت مأساة آل محمد ﷺ في الطف هزيمة المشركين في بدر (وعدلناه ببدر فاعتدل)... إنّ من يفهم (صفين) و(الطف)... بغير هذا الفهم، ويفسّرها بغير هذا الوجه، لا يستطيع أن يفهم دور أهل البيت عليهم السلام العظيم في تصحيح حركة الإسلام ومساره خلال هذه الفترة الصعبة من التاريخ. وعندما نقرأ نحن الشعر الذي كان يلقيه أنصار الحسين عليه السلام بساحة الطف نجد هذا الوعي والفهم الدقيق للتاريخ، والقراءة الواعية لمعركة بدر ووقعة الطف، والعلاقة بينهما بشكل واضح.

ونذكر مثلا على ذلك شعر عمرو بن جنادة الأنصاري رضي الله عنه من أنصار الحسين عليه السلام، ونختم به هذا البحث:

---

(١) راجع كتاب (الخطاب الحسيني): ١٠٦ في مصادر هذا الشعر وكلمات العلماء في تكفير يزيد ولعنه بسببه.

أضق الخناق من ابن هند وارمه　　فـي عقـره بفـوارس الأنصـار
ومهـاجرين مخضـبين رمـاحهم　　تحـت العجاجـة مـن دم الكفـار
خضبت على عهد النبـي محمـد　　فـاليوم تخضـب مـن دم الفجـار
واليوم تخضـب مـن دمـاء أراذل　　رفضـوا القـرآن لنصـرة الأشـرار
طلبـوا بثـأرهم ببـدر إذ أتـوا　　بالمرهفـات وبالقنـا الخطـار
والله ربـي لا أزال مضـاربا　　فـي الفاسـقين بمرهـف بتّـار
هـذا علـيَّ اليـوم حـق واجـب　　فـي كـل يـوم تعـانق وكـرار[1]

(١) الفتوح لابن أعثم ٥: ١٢٥، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٢١، بحار الأنوار ٤٥: ٢٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧١.

الفهرس